مســـألة تاريخية

للدكتور جـــواد على

بهذا العنوان حرر الأستاذ الكبير ساطع بك الحصرى مقالة نشرها فى مجلة الثقافة (١) كانت بمثـــابة ردّ على ما كتبه « شمس الدين كون التاى » أحد الكتاب الأتراك فى مجلة « مجمع التاريخ التركى » التركية بمناسبة الاحتفال التذكارى الذى أقيم فى سنة ١٩٣٧ فى كابل وطهران واستانبول لمناسبة مرور تسعمائة عام على وفاة الفيلسوف الحكيم « ابن سينا » وقد تنازع على أصله الإيرانيون والأتراك والأفغان وكتبوا فى ذلك الكتب والمقالات . كل يدعى أنه منهم . ولم يتنازع الناس عليه يوم كان حياً ؛ ولكنها الدنيا لا تعرف قيم الأشخاص إلا بعد الوفاة

(١) عدد ٤٩٧ و ٤٩٨ تاريخ ٦ يولية سنة ١٩٤٨ و ١٣ يولية سنة ١٩٤٨ .

وقد تعرض الأستاذ « أبو خلدون » فى جملة ما تعرض له من نقاط إلى موضوع « الأتراك » وأثرهم الفقافى فى البصرة و « معبد الجهنى » وأثره فى « الجبر والاختيار » وعلم الكلام . فقد زعم « شمس الدين كون التاى » فى جملة ما زعمه أن « عبيد الله بن زياد الذى كان قد ولى على خراسان مأموراً للاستيلاء على ما وراء النهر فى عهد الخليفة معاوية كان قد أعجب إعجاباً شديداً بالثقافة العالية والمهارة العسكرية التى يتحلى بها أهل بخارى فانتخب من بينهم ألفى شاب من المهذبين المثقفين ، وأرسلهم إلى العراق بغية جعلهم معلمين للعرب وأسكنهم البصرة . وإن هـذه المعلومات التى ينقلها لنا أقدم مؤرخى الإسلام البلاذرى تحل اللغز الذى كان يكتنف مسألة منشأ الحركة الفكرية الأولى فى الإسلام » .

وقد تساءل هذا الكاتب التركى : لماذا نشأت هذه الحركة فى مدينة البصرة أولا ؟ فأجاب « لأن الذين أثاروا هذه الحركة الفكرية الأولى كانوا هؤلاء الشبان المنقولين من بخارى هم وأولادهم ، وإن الشخصيين اللذين كانا وضعا الحجر الأساسى فى

بخير ، وأن أصحاب الفضل ان يعدموا من يقول فيهم كلمة الحق ، ولو حال بينها وبين الجهر بها كثير من الدوافع والأغراض !

لقد كان حديثنا فى آخر لقاء يدور حول هـذا الموضوع لا يكاد ينأى عنه حتى يعود إليه ... ولقـد قلت لك فيما قلت : ليتنا يا صديقى نملك كثيراً من أمثالك ؛ أولئك الذين يحفظون عهد الصديق ، ويلتمسون سبل الخير ، وينشدون وجه الحق ، ولكن أين هم ؟ أين من يطلق رأياً كرأيك بكلمة صدق تقال فى الزيات ؟ وأين من يرفع صوتاً كصوتك بكلمة عزاء توجه إلى طه ؟ ! لقد انتظرت رجع الصدى لما كتبت ، فضاع الأمل وخاب الرجاء ! أما أنت فقد أخجلتنى حين قلت لى : يا أخى ، حسبى أنك تقف إلى جانبى ...

وحين رحت أقص عليك بعض ما أعلم وتعلم من جدوى الصداقة على الأدب ، متمثلا ببعض النماذج الإنسانية فى أدب العالم ، عقبت على ذلك بقولك : يا أخى ، إن الأدب الرفيع حق كله ، وخير كله ، وجمال كله ... فلم نشوه الحق بالبغضاء ، ونطمس الخير بالسخائم ، ونفرش طرق الجمال بالأحقاد ؟ ! إننا نقبل هذا فى دنيا السياسة ، لأن رجالها قوم مشدودون إلى الأرض ، ينظرون إلى يومهم وما فيه من أسلاب ، ولا يتطلعون إلى غدهم وما فيه من أمجاد !

أما فى دنيا الأدب ، فما أوسع الشقة وأبعد الفارق ، إن رجال الأدب قوم تربطهم بالسماء خيوط إلهية غير منظورة ، وما أحرى المتصلين بالسماء أن يكونوا قدوة حسنة لهـذا الجيل الصاعد فى صفاء النفس ونقاء السريرة وشرف الغاية ...

ترى لو فقد الجيل الصاعد إيمانه بنا ، نحن الذين أقنا من أنفسنا هداة تدله على مواطن الخير وترشـده إلى معالم الطريق ، فماذا يبقى له ليؤمن به ؟ !

لو تحقق الصفاء فى الأدب لما أنكر حق من الحقوق ، ولما ضاع قدر من الأقدار ، ولما اختل فى تحديد القيم ميزان !

يا صديقى توفيق ، مرة أخرى أعود فأقول لك : ليتنا نملك كثيراً من أمثالك ، أولئك الذين يحفظون عهـد الصديق ، ويلتمسون سبل الخير ، وينشدون فيما يقولون وجه الحق .

أنور العطاوى

بناء المذهبين المتعارضين فى اللاهوت كان كلاهما من أهل ذلك القطر . إن معبد الجهنى الذى أسس المذهب القائل بحرية الإرادة البشرية كان قد ولد فى بلدة جهينة الكائنة فى نواحى جرجان وطبرستان ، كما أن جهم بن صفوان الذى أسس المذهب المعارض لذلك هو أيضاً كان تركياً من أهل بلخ وكان قد تقدم بآرائه هذه لأول مرة فى مدينة « ترمذ » من ديار الأتراك » .

ولقد لفت هذه الدعاوى نظر الأستاذ « ساطع الحصرى » — وهو من المحامين عن الثقافة العربية الذابين عنها — فراجع المصادر التى استند عليها « شمس الدين » فلم يجد فيها ما يشير إلى ما ذهب إليه هذا الكاتب من نقل المثقفين والعلماء الأتراك من طبرستان إلى البصرة لا تصريحاً ولا تلميحاً وإنما تحدث عن سبى من السبايا الذين نقلوا كالعادة من طبرستان إلى جنوب العراق . وبهذا دل المؤرخ التركى على أنه لم يكن يستند فى قوله هذا على أى سند أو دليل .

ثم عرج « ساطع الحصرى » على قضية « معبد الجهنى » ونسبته إلى الأتراك فاستعرض الآراء فى « جهينة » وفى نسبة « معبد » فيها ثم خرج من كل ذلك إلى أن « الجهنى » من « جهينة » القبيلة العربية المعروفة ؛ وقد استند فى نهاية حديثه إلى ما رواه السمعانى فى كتابه « الأنساب » حيث قال : الجهنى — هذه النسبة إلى جهينة وهى من قضاعة : نزلت الكوفة ومنها محلة ينسب إليها جماعة ... منهم معبد بن خالد الجهنى كان يجالس الحسن البصرى ، وهو أول من تكلم بالبصرة فى القدر . فسلك أهل البصرة بعده مسلكه فيها » .

وما كان الأستاذ — فى نظرى — بحاجة إلى إثبات أو نفى نسب « معبد » وتعيين منزلته فى العرب أو الأتراك . وفى القرآن الكريم والحديث النبوى ، وفى خطب الصحابة مثل خطب الإمام على المدونة فى نهج البلاغة ، وفى أسئلة الصحابة للرسول ، وفى الأسئلة الكثيرة التى كان يوجهها العراقيون إلى زعيمهم الإمام عن الحرب والفتنة ، أكان ذلك بعلم الله وقضائه وفى بحث التابعين فى هذه المواضيع قبل نشوء « معبد » وقبل نفوه « جهم ابن صفوان » زعيم « الجهمية » . نعم فى كل ذلك ما يغنى عن الرد على صاحب هذه المقالة . اللهم إذا رعم « شمس الدين » أن القرآن تركى وأن الرسول تركى وأن « الحديث النبوى » تركى بلغة « التاى » .

وقد أعادت هذه المقالة إلى ذهنى ذكريات « المؤتمر اللغوى التانى » الذى عقده الأتراك فى الأستانة بين ١٨ — ٢٣ آب والذى رأسه المرحوم « أتاتورك » وحضره ما يزيد على (٦٠٠) شخص من أرقى طبقات الأتراك كان من بينهم فخامة الرئيس الحالى « عصمت إينونو » وكاظم باشا رئيس المجلس الوطنى الكبير ورجب بك السكرتير العام لحزب الشعب .

وقد افتتح المؤتمر معالى وزير المعارف فى ذلك العهد فذكر أن الأمة التركية أقدم الأمم تمدناً وحضارة ، وأنها هى التى نقلت الحضارة من أواسط آسيا إلى أوربا الشرقية والشرق الأدنى ، فأصبحت سبباً فى تحضر الأمم الأخرى وتمدنها . وادعى أحمد جواد بك أحد أعضاء المؤتمر أن اللغات الهندية والجرمانية والسلافية واليونانية واللاتينية والقفقاسية والفنية (لغة فنلندة) هى من أصل يرجع إلى اللغة التركية القديمة المسماة لغة « التاى » وهى لغة الأتراك القديمة .

وتكلم عضو آخر هو « نعيم حازم بك » عن « علاقة اللغة السامية » فزعم أن المدنية التركية كانت بمثابة خميرة المدنيات العالمية ، وأن اللغة التركية كانت الأصل لجميع اللغات ، وأن الأقوام السامية إنما أصبحت ذوات لغات واسعة غنية باحتكاكها بالأتراك . وضرب مثلا على ذلك اللغة العربية فقال إن العرب كانوا قد استمدوا كثيراً من الكلمات من اللغة التركية تصرفوا بها وعربوها وسقلوها فى جاهليتهم وفى أيام إسلامهم ، وجاء بأحد عشر قاعدة فى كيفية أخذ العرب قديماً للكلمات التركية وتعريبهم لها . وذكر أمثلة على هذه القواعد .

وأيد هذه النظرية لغوى آخر هو « يوسف ضياء بك » نائب اسكيشهر إذ بحث عن الكلمات التى انتقلت من لغة « التاى » أى اللغة التركية القديمة إلى اللغات السامية ولغة العرب على الأخص .

وساقت العاطفة بعضهم إلى الادعاء بوجود علاقات قوية بين لهجة « سايا » فى السكسيك ولغة الأتراك وطلبوا لذلك الاهتمام بدراسة هذه اللغة ودراسة لغة أخرى تشبهها هى لغة « تولتك » لمعرفة أنساب الأتراك والحصول على كلمات تركية